أثرُ الدلالة اللغوية في الإفصاح عن المعاني القرآنية دراسة في الموروث التفسيري لأهل البيت

أ م د محسن كامل غضبان

جامعة الكفيل/ كلية القانـون

DR.Mohsen Kamel Ghadhban

Al-Kafeel University/College of Law

ملخص:

يناول هذا البحث أثرُ الدلالة اللغوية في الإفصاح عن المعاني القرآنية دراسة في الموروث التفسيري لأهل البيت ويبين أن لا سبيل لفهم القرآن الكريم إلا بمعرفة أسرار لغته التي نَزَلَ بها، من منطلق أن اللغة تمثل الوعاء الذي نزل به القرآن الكريم، وعليه فلا سبيل لفهم القرآن الكريم إلا بمعرفة أسرار لغته التي نَزَلَ بها، وبين البحث أيضاً أنه ينبغي على المفسر الاهتمام بعلوم اللغة لما لها من أثر مباشر في معرفة معاني القرآن الكريم ودلالاته ألفاظه، فتناول البحث في شقه الأول: أهمية معرفة اساليب اللغة في الكشف عن المعاني القرآنية)، بإيراد بعض الأمثلة التي تحوي ألفاظاً غامضة واجهت كبار الصحابة فلم يتيسر تحديد المراد منها، وكشف دلالاتها، كما يسلط الأضواء على: (ريادة الإمام أمير المؤمنين في التأصيل لعلم النحو)، ليُختَم ببعض النماذج من التفسير اللغوي في موروث أهل البيت).

Abstract:

This research examines the impact of linguistic connotation on the elucidation of Quranic meanings, examining the interpretive heritage of the Ahl al-Bayt (the Prophet's family). It demonstrates that the Holy Quran can only be understood by understanding the secrets of the language in which it was revealed. This is based on the premise that language represents the vessel in which the Holy Quran was revealed. Therefore, the Holy Quran can only be understood by understanding the secrets of the language in which it was revealed. The research also demonstrates that interpreters should pay attention to linguistics, given its direct impact on understanding the meanings of the Holy Quran and the connotations of its words. The first part of the research addresses the importance of understanding linguistic methods in uncovering Quranic meanings, providing examples of ambiguous words that confronted the senior Companions, who were unable to determine their intended meanings or uncover their connotations. It also highlights the pioneering role of the Commander of the Faithful (peace be upon him) in establishing the foundations of grammar, concluding with some examples of linguistic interpretation in the heritage of the Ahl al-Bayt (peace be upon them).

الكلمات المفتاحية:

أهل البيت، الدور التفسيري، الإفصاح عن معاني القران، ريادة الإمام علي، نماذج تفسيرية

Ahl al-Bayt, the interpretive role, revealing the meanings of the Qur'an, the leadership of Imam Ali, interpretive models

مقدمة:

تعدّ اللغة العربية الأساس في فهم القرآن الكريم، لأنّها تمثل الوعاء الذي نزلت فيه آيات الذكر الحكيم، فقد أنزله الله تعالى بلسان عربي فصيح ليكون حجة على أهل ذلك اللسان، وإذا كان كذلك وجب أن يكون مفهوما، وقد أكد القرآن الكريم هذا المعنى في آياتٍ عديدة كقوله تعالى: **{هَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ}** (النحل، صفحة آية١٠٣)، وقوله: **{وما أَرْسَلْنا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا بِلِسانِ قَوْمِهِ}**، وقد أرسل الله تعالى نبينا محمداً k إلى الخلق كافة بلسان قومه وهم العرب، فكان هذا من العوامل المؤثرة في استجابة بعض العرب للقرآن الكريم؛ لأنّه يحاكي أساليبهم بالكلام، ولو أنّه نزل بلغة أخرى لتعلّلوا بخفائه وعدم وضوحه، وهذا ما رصده القرآن الكريم بقوله: **{وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا أَعْجَمِيًّا لَقَالُوا لَوْلَا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ}** (فصلت، صفحة آية٤٤) ، وكذلك قوله تعالى: **{وَلَوْ نَزَّلْنَاهُ عَلَى بَعْضِ الْأَعْجَمِينَ}** (الشعراء، صفحة آية١٩٨)، وعليه فلا سبيل لفهم القرآن الكريم إلا بمعرفة أسرار لغته التي نَزَلَ بها (الحكيم، ١٤١٧هـ) .

أهمية الموضوع:

تكمن أهمية هذا الموضوع من منطلق أن اللغة تمثل الوعاء الذي نزل به القرآن الكريم، وعليه فلا سبيل لفهم القرآن الكريم إلا بمعرفة أسرار لغته التي نَزَلَ بها، من هنا ينبغي على المفسر الاهتمام بعلوم اللغة لما لها من أثر مباشر في معرفة معاني القرآن الكريم ودلالاته ألفاظه، التي واجهت كبار الصحابة فلم يتيسر لهم تحديد المراد منها، وكشف دلالاتها.

مشكلة البحث:

تُعدّ الدلالة اللغوية من أبرز المفاتيح التي تُمكّن المفسّر من الوقوف على مرادات النص القرآني، لما تحمله الألفاظ من طاقة معنوية تتفاوت بتفاوت السياقات والمقاصد، ومن هنا فقد انقدخت في ذهن الباحث بعض التساؤلات منها: ما مدى توظيف أهل البيت للبعد الدلالي في تفسيرهم للقرآن الكريم، وكيف ساهم هذا التوظيف في الكشف عن المعاني الدقيقة والباطنية للنصوص القرآنية، وكيف أثّرت الدلالة اللغوية في الإفصاح عن المعاني القرآنية في الموروث التفسيري لأهل البيت .

هيكلية البحث:

للإجابة على تلك التساؤلات فقد انقسم البحث على مبحثين تناول الأول: أثر اللغة في توجيه دلالات ألفاظ القرآن الكريم، فيما جاء الثاني على ذكر بعض: المقاربات اللغوية في تفسير القرآن عند أهل البيت، ثم ذيل البحث بخاتمة جاءت على ذكر أهم النتائج التي توصل إليها الباحث، تلتها قائمة المصادر والمراجع.

المبحث الأول

الدور التفسيري للغة في بيان النص القرآني

لا يختلف اثنان على أنّ سلامة النطق تعني سلامة المعنى، وعليه فإنّ سلامة نُطق الآيات القرآنية يستلزم سلامة المعاني المتوخاة من الفاظها، "إذ إنّ هذا الاهتمام بضبط أواخر الكلمات إنّما يُقصد منه أساساً المعنى، فعلى المعنى يدور ضبط الكلمة وإعرابها، فالفاعل يرفع، والمفعول به ينصب، وما لحقه من الجرّ بسبب من أسبابه يجر" (السبِحاني، ١٤٢٢هـ، صفحة ١٤٥) ؛ (السبحأني، د.ت، صفحة ٢١٨) ، قال السيوطي في الاتقان: "وعلى الناظر في كتاب الله تعالى الكاشف عن أسراره النظر في الكلمة وصيغتها ومحلها ككونها مبتدأ أو خبراً أو فاعلاً أو مفعولاً أو في مبادئ الكلام أو في جواب إلى غير ذلك" (السيوطي ج.، ١٤٢٤هـ ـ ٢٠٠٣م، صفحة ٥٢٨) ؛ (الزركشي، ١٤٢٥هـ / ٢٠٠٤م، صفحة ج١/ ٣٠٣) ، وتبعاً لذلك فقد تعددت آراء المفسرين في معاني الآيات القرآنية، إذ كلّما تعدّد اعراب الكلمة تعددت المعاني، الأمر الذي يظهر أهمية معرفة أساليب اللغة في تحديد دلالات النص القرآني بوصفه أعلى ما في العربية من بيان، ويتجلى أثره الكبير في أداء المفسر وقيمة نتاجه التفسيري، كما أنّ لاختلاف النحويين في الأوجه الإعرابية أثراً في تفسير الآيات القرآنية؛ لأنّ قضايا اللغة ومعاني النحو تمثل أدوات تستخدم في الإفصاح عن تفسير العديد من آي الذكر الحكيم، فهناك ارتباط وثيق بين المعنى والحالة الإعرابية، قال عنها الزركشي واعقبه السيوطي: "ومن فوائد هذا النوع معرفة المعنى لأنّ الإعراب يميز المعاني ويوقف على أغراض المتكلمين" (الزركشي، ١٤٢٥هـ / ٢٠٠٤م، صفحة ج٣٠٣/١).

المطلب الأول: معرفة حقائق اللغة في الكشف عن معاني القرآن الكريم:

لا بدّ للمفسر من أن يكون ملمّاً بعلوم اللغة وأساليبها، كي يتسنى له الوقوف على دلالات الألفاظ، ومن ثم معرفة مراد الله تعالى في كتابه الحكيم، وقد أكد الزركشي هذا الحقيقة في كتابه (البرهان) إذ قال: "وليس لغير العالم بحقائق اللغة ومفهوماتها تفسير شيء من الكتاب العزيز، ولا يكفي في حقه تعلم اليسير منها، فقد يكون اللفظ مشتركاً وهو يعلم أحد المعنيين" (الزركشي، ١٤٢٥هـ / ٢٠٠٤م، صفحة ج١٦٥/٢) ؛ (الفراجي، ١٤٢٨هـ ـ ٢٠٠٧م، صفحة ٢٣) ، وهذا ما وقع للصحابة بعد النبي k فربّما قصُر بعضهم عن إدراك بعض حقائق اللغة التي نزل بها القرآن الكريم، فعلى الرغم من أنّه نَزَلَ بلغة العرب، وتحدث بحديثهم، وعالج قضاياهم، إلّا أنّهم لم

يكونوا بدرجة واحدة من فهم كلماته ومغازي ألفاظه، يؤيد هذا الادعاء عدم تمكن الخليفة الأول أبي بكر (رض) عن معرفة المراد من لفظ (الكلالة) في قوله تعالى: **{وَإِنْ كَانَ رَجُلٌ يُورَثُ كَلَالَةً أَوِ امْرَأَةٌ وَلَهُ أَخٌ أَوْ أُخْتٌ فَلِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا السُّدُسُ}** (النساء، صفحة آية١٢) ، فقال: "أقول فيها برأيي، فإن أصبت فمن الله وان اخطأت فمن نفسي ومن الشيطان" (المفيد، ١٤١٤هـ، صفحة ج١/ ٢٠٠) ؛ (السمرقندي، د.ت، صفحة ج١/٣٨٦) ، فقد لجأ إلى إعمال الرأي والاجتهاد؛ نتيجة تمكنه من تحديد مدلول اللفظ في الآية الكريمة.

ولما بلغ الإمام علي قول الخليفة أبي بكر (رض)، قال: "ما أغناه عن الرأي في هذا المكان، أما علم أنَّ الكلالة هم الأخوة والأخوات من قبل الأب والأم، ومن قبل الأب على انفراده، ومن قبل الأم وحدها، قال سبحانه: **{يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلَالَةِ إِنِ امْرُؤٌ هَلَكَ لَيْسَ لَهُ وَلَدٌ وَلَهُ أُخْتٌ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ}** (النساء، صفحة آية١٧٦) ، وقال عز من قائل: **{وَإِنْ كَانَ رَجُلٌ يُورَثُ كَلَالَةً أَوِ امْرَأَةٌ وَلَهُ أَخٌ أَوْ أُخْتٌ فَلِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا السُّدُسُ فَإِنْ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ فَهُمْ شُرَكَاءُ فِي الثُّلُثِ}**" (النساء، صفحة آية١٢) ؛ (المفيد، ١٤١٤هـ، صفحة ج١/٢٠٠، ٢٠١) ، وقد استدلّ الإمام علي بآيتين إذ جمع بينهما جمعاً دلالياً ليبرهن على أنّ أحكام الله تعالى لا تصاب بعقول الرجال، وتحكيم الأهواء بالقرآن الكريم، وبهذا يسجل الإمام حالة من التفرد في تحديد دلالات ألفاظ القرآن الكريم التي أظهر الصحابة عدم القدرة فيها، وهم في موقع الإفتاء والقضاء.

ومن الأمثلة الأخرى ما رواه الحاكم في المستدرك عن أنس بن مالك، قال: "سمع عمر بن الخطاب يقول: **{فَأَنْبَتْنَا فِيهَا حَبًّا وَعِنَبًا وَقَضْبًا وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا وَحَدَائِقَ غُلْبًا وَفَاكِهَةً وَأَبًّا مَتَاعًا لَكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ}** (عبس، الصفحات آية٢٧-٣٢) ، قال: فكل هذا عرفناه فما (الأب)، ثم نقض عصاً كانت في يده، فقال: هذا لعمر الله التكلف، فخذوا أيها الناس بما بيّن لكم فاعملوا به، وما لم تعرفوه فكلوه إلى ربه" (النيسابوري، د.ت، صفحة ج٢/٥١٤) ، ولما بلغ الإمام علي ذلك قال: "سبحان الله أما علم أن الأب هو الكلاء والمرعى وأن قوله سبحانه **{ وَفَاكِهَةً وَأَبًّا }** اعتداد من الله بأنعامه على خلقه فيما غذّاهم به وخلقه لهم ولأنعامهم مما تحيى به أنفسهم وتقوم به أجسادهم" (المفيد، ١٤١٤هـ، صفحة ج١/٢٠٠) ؛ (الكاشاني، ١٤١٦هـ، صفحة ج٥/٢٨٧) ؛ (البحراني، د.ت، صفحة ج٥/ ٥٨٥) ، الأمر الذي يكشف قصور بعض الصحابة عن الإحاطة بلغة القرآن الكريم التي هي لغة العرب، وبالمحصلة خفاء كثير من المعاني الواردة في نصوص الكتاب العزيز، وقد تكررت تلك الحوادث مع أكابر الصحابة، فعن سعيد بن المسيب أنه قال: "بينما عمر بن الخطاب على المنبر فقال: يا أيها الناس ما

تقولون في قول الله: **{أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَى تَخَوُّفٍ}** (النحل، صفحة آية٤٧) ، فسكت الناس، فقام شيخ فقال: يا أمير المؤمنين هذه لغتنا في هذيل: التخوّف عندنا التنقص، فقال عمر: وهل تعرف العرب ذلك في أشعارهم قال: نعم، ... قال عمر: يا أيها الناس عليكم بديوانكم لا تضلوا فإن فيه تفسير كتابكم" (الثعلبي، ١٤٢٢هـ، صفحة ج١٩/٦) ، وفي صحيح البخاري أنّ عدي بن حاتم لم يفهم الخيط الأبيض من الخيط الأسود في قوله تعالى: **{وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ}** (البقرة، صفحة آية١٧٨) فقال لما نزلت هذه الآية: "عمدت إلى عقال أسود وإلى عقال أبيض فجعلتهما تحت وسادتي، فجلت أنظر في الليل فلا يستبين لي فغدوت على رسول الله k فذكرت له ذلك فقال: إنّما ذلك سواد الليل وبياض النهار" (البخاري، ١٤٠١هـ، صفحة ج٢٣١/٢) .

ولعلّ في عدم تمكن أبن عباس عن معرفة لفظ (فاطر) في قوله تعالى: **{فَاطِرُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ}** (الفاطر، صفحة آية١) خير دليل على تفاوت الصحابة في فهم بعض الفاظ القرآن الكريم، وهو المعروف بحبر الأمة وترجمان القرآن، فقد جاء عنه أنه قال: "كنت لا أدري ما فاطر السماوات حتى أتاني اعرابيان في بئر فقال أحدهما: أنا فطرتها يقول أنا ابتدأتها" (الطبري، ١٤٢٠ هـ / ٢٠٠٠ م ، صفحة ج٢١١/٧) ؛ (النحاس، ١٤٠٩هـ، صفحة ج٤٣٥/٥) ، وهذا كله يظهر أنّ الصحابة لم يكونوا على درجة عالية من فهم بعض ألفاظ القرآن الكريم وبعض أساليب اللغة العربية التي نزل بها، وهو ما يرد دعوى أبن خلدون من أنّ الصحابة كانوا يفهمون مفردات القران وتراكيبه، بقوله: "فاعلم إن القرآن نزل بلغة العرب وعلى أساليب بلاغتهم فكانوا كلهم يفهمونه ويعلمون معانيه في مفرداته وتراكيبه" (خلدون، د.ت، صفحة ج٤٣٨/١) ، إذ إنَّ سيرتهم أثبتت عكس ذلك.

وتأسيساً على ما تقدم يتضح جلياً أن الاحاطة بتراكيب اللغة العربية ومعرفة أساليب الكلام ذو أهمية كبرى في تحديد دلالات النصوص القرآنية، إذ إنّها تمثل المفتاح لفك رموز بعض العبارات المبهمة في نصوص الكتاب العزيز، لذا عدّها العلماء من شروط المفسر الأساسية، وعلية فليس بإمكان أي مفسر الخوض في كتاب الله تعالى ما لم يكن محيطاً بأساليب الكلام واللسان العربي، ولهذا فقد انتقد أئمة أهل البيت كل من تصدى لتفسير القرآن الكريم من دون معرفة أساليب اللغة، قال الإمام الصادق : "وذلك أنَّهم ضربوا بعض القرآن ببعض، ... ولم ينظروا إلى ما يفتح الكلام وإلى ما يختمه، ولم يعرفوا موارده ومصادره إذْ لم يأخذوه عن أهله فضلّوا وأضلّوا، ..." (ألعاملي، ١٤١٤هـ، صفحة ج١٤٧/١٨) ؛ (المجلسي، ١٤٠٣هـ / ١٩٨٣م، صفحة ج٧٢/٨٩) ، في إشارة واضحة منه إلى

أهمية اللغة في تحديد دلالات بعض ألفاظ القرآن الكريم ومن ثم فهم تلك المعاني التي تستبطنها تلك الألفاظ؛ فالكلام له موارد ومصادر، لا يحيط بها إلّا المعصوم .

لهذا بيّن الإمام أنّه من لم يعلم "المبهم من القرآن في ألفاظه المنقطعة والمؤلفة، ... والتقديم والتأخير، والمبين والعميق، والظاهر والباطن ... فليس بعالم بالقرآن ولا هو من أهله" (المجلسي، ١٤٠٣هـ / ١٩٨٣م، صفحة ج٧٢/٨٩) ، لأنّ الكلام له ظاهر وباطن، فالكلمة بمفردها تؤدي معنى يغاير المعنى الذي تؤديه وهي مندرجة في سياق النص، وعليه يكون الأخذ بمجموع هذه العلوم التي أشار إليها الإمام الصادق ومن بينها علوم اللغة، ومعرفة مواضع التقديم والتأخير، وموارد الكلام ومصادره، هو السبيل لفهم آيات القرآن الكريم.

المطلب الثاني: الاسهام التأسيسي للإمام علي في بناء علم النحو:

لم تقف جهود أئمة اهل البيت عند حدٍّ معين في خدمة القرآن الكريم وما ينتظمه تفسير النص القرآني فحسب، وإنما امتدت لتشمل التأصيل لعلوم اللغة، لأن الغاية من وضع أسس هذه العلوم هي خدمة القرآن الكريم وتجلية معانيه، ومن بين تلك العلوم التي أحتل بها أئمة أهل البيت ميدان الصدارة علم النحو، وإنَّ ثمَّة دوافع وأسباب أدت إلى التفكير في وضع قواعد هذا العلم، انتجتها البيئة الجديدة التي مرت بالإسلام، التي أشاعت اللّحن على ألسنة الناس بسبب اختلاط العرب بالشعوب الأجنبية التي دخلت الإسلام وعاشت في بلاد المسلمين، أو تلك الشعوب التي ارتبط بها المسلمون ببعض العلاقات، فكان لذلك الاختلاط انعكاساته على اللسان العربي، إذ ليس من شك أنّ طبيعة هذا الاختلاط يؤدي إلى اللحن.

ولا يعني هذا أنّ اللحن لم يكن موجوداً عند العرب حتى قبل انشار الإسلام واختلاط المسلمين بغيرهم من الأمم الأخرى، فقد كان لوجود الموالي أثره في ظهور اللحن حتى في عهد رسول الله k، فقد روي أنّ رجلاً لحن بحضرته فقال k أرشدوا اخاكم (الحلبي، ١٣٧٥هـ / ١٩٥٥م، صفحة ٥) ؛ (الهندي، ١٤٠٩هـ / ١٩٨٩م، صفحة ج١/٦١١) ؛ (النيسابوري، د.ت، صفحة ج٢/٤٣٩) ، ثمَّ إنَّ رقعة اللحن ازدادت بين الناس وأخذ يشيع تدريجياً على الألسنة بعد توسع الفتوحات الإسلامية واختلاط المسلمين بغيرهم من القوميات، فقد كتب كاتب أبي موسى إلى عمر بن الخطاب: (من أبو موسى) فكتب إليه عمر: "سلام عليك أما بعد: فاضرب كاتبك سوطاً واحداً وأخِّر عطاءه سنة" (الحلبي، ١٣٧٥هـ / ١٩٥٥م، صفحة ٦) ، وذكر أبن عساكر أنّ رجلاً دخل على زياد فقال: "إنّ أبينا هلك، وإنّ أخينا غصبنا ميراثنا من أبانا، فقال زياد ما ضيَّعت من نفسك أكثر ممّا ضاع من مالك" (عساكر، ١٤١٥هـ، صفحة ج١٩/ ١٩٥)، وهكذا فقد أخذت ظاهرة اللحن تتفشى لتصل إلى البلدان الأخرى، فقد ذكر الجوهري عن الفراء أن أول لحن سمع في العراق: "هذه عصاتي" (منظور، ١٤١٣هـ / ١٩٩٣م، صفحة ج١٥/٩٤) ؛ (الزبيدي، ١٤١٤هـ / ١٩٩٤م، صفحة ج١٩/٦٨٠) ، ويبدو أنّ ذلك كان في البصرة لأنّها تمثل المركز الحضاري آنذاك بحكم موقعها الجغرافي وقربها من البحر، واختلاط أهلها بالقوميات الأخرى (الأزهري، د.ت، صفحة ج١٩/٦٨٠) ، لذا فقد روى أبو الأسود الدؤلي، قال: "دخلت على أمير المؤمنين فوجدت في يده رقعة فقلت: ما هذه يا أمير المؤمنين، فقال: إني تأملت كلام الناس فرأيته قد فسد بمخالطة هذه الحمراء" (العاملي، ١٤١٨ / ١٣٧٦ ش، صفحة ج١/٦٨١) ، الأمر الذي يكشف أن سبب شيوع اللحن على ألسنة الناس كان لهذا السبب، وهو اختلاط المسلمين بغيرهم من الأقوام

الأخرى، وهذا بطبيعته يلقي بظلاله على قراءة القرآن الكريم؛ "لأنّه ينبعث عن تحريف القراءة تحريف اللفظ القرآني المنزل ومن ثم تحريف المعنى" (السبِحاني، ١٤٢٢هـ، صفحة ١٤٥) .

وبناءً على هذا فقد أحسَّ الإمام أمير المؤمنين بضرورة وضع الضمانات اللازمة التي تحفظ الألسنة العربية من الخطأ واللحن في النطق، وتصون القرآن الكريم من القراءات المزيفة التي تؤدي إلى ضياع المعاني، لأنّ الاهتمام بالقراءة يستدعي الاهتمام بالنحو، وهو ما شغل فكر الإمام انطلاقاً من حرصه الشديد على أن يُؤدى القرآن الكريم أداءً فصيحاً لا يخلّ بالمعنى، فقد روي عن أبي الأسود الدؤلي أنّه قال: "دخلت على أبن أبي طالب فرأيته مطرقاً متفكراً، فقلت: فيم تفكر يا أمير المؤمنين فقال: إنّي سمعت ببلدكم هذا لحناً فأردت أن أصنع كتاباً في أُصول العربية، فقلت: إن فعلت هذا أحييتنا وبقيت فينا هذه اللغة، ثم أتيته بعد ثلاث فألقى إليّ صحيفة فيها، بسم الله الرحمن الرحيم الكلام كله اسم وفعل وحرف، فالاسم: ما أنبأ عن المسمى، والفعل: ما أنبأ عن حركة المسمى، والحرف: ما أنبأ عن معنى ليس بإسم ولا فعل، ثم قال لي: تتبعه وزد فيه ما وقع لك، وأعلم يا أبا الأسود أن الأسماء ثلاثة: ظاهر، ومضمر، وشيء لا ظاهر ولا مضمر، وإنما تتفاضل العلماء في معرفة ما ليس بظاهر ولا مضمر، قال أبو الأسود: فجمعت منه أشياء وعرضتها عليه، فكان من ذلك حروف النصب، فذكرت فيها إنْ وأنْ وليتَ ولعلَّ وكأنّ، ولم أذكر لكنَّ، فقال لي: لم تركتها فقلت: لم أحسبها منها، فقال: بلى هي منها فزدها" (الأمين، د.ت، صفحة ج١/١٦١) ، وبهذا يتضح أنّ أول من أصّل لهذا العلم الذي يهدف أساساً إلى صيانة القرآن الكريم من اللحن الذي يفضي إلى ضياع المعاني هو الإمام أمير المؤمنين ثم أجاز لتلميذه أبي الأسود الدؤلي أن ينحو هذا النحو وأن يزيد عليه بعد أن وضع له القواعد العامة التي يسير عليها علم النحو، التي تناقلها الناس بعد ذلك.

فهذا الإرث الغني الذي خلّفه الإمام أمير المؤمنين ، شكل أساساً ومنطلقاً ابتنت عليه أصول النظر إلى القرآن الكريم، ومن ثمّ محاولة فهمه وتفسيره على أساس سليم، كما أنّه قد أحلَّ اللغة العربية من اللغات محلّ الغرة من الجبين إذ وضع لها أصولاً وقواعد تبتني عليها وتحفظها من الضياع والاندراس، بعد أن رفع الله سبحانه وتعالى من قدرها إذ جعلها لغة القرآن الكريم، وخلَّدها ما بقي لهذا القرآن رسمٌ، قال أبن معصوم المدني: "إنّ الله قد رفع مقدارها بنسبة كتابه العربي المبين إذ جعلها لغة القرآن الكريم وجعل الفصاحة ضوء لا يعلق إلا بذبالة مصباحها، والبلاغة نوراً لا يشرق إلّا بإنارة إصباحها" (المدني، ١٤٢٩هـ، صفحة ج١/٦) .

ولعلّ أهمّ ما يميز هذا الجهد الذي قام به الإمام ويجعله جهداً متفرداً يتعذر على العلماء التأصيل له والاحاطة بجزئياته كافة سعة اللغة العربية من بين اللغات الأخرى، فهي على نوعين: عربية حمير، التي تكلموا بها من عهد هود ومن قبله، وبقي بعضها إلى وقتنا، والعربية المحضة، التي بها نزل القرآن الكريم، وأول من أطلق لسانه بها إسماعيل (الزبيدي، ١٤١٤هـ / ١٩٩٤م، صفحة ج٥٣/١) ، مما يجعل الاحاطة بها أمراً في غاية الصعوبة، لذا قال الشافعي في الرسالة: "ولسان العرب أوسع الألسنة مذهباً وأكثرها ألفاظاً، ولا نعلمه يحيط بجميع علمه إنسان غير نبي ولكنه لا يذهب منه شيء على عامتها حتى لا يكون موجودا فيها من يعرفه" (ألشافعي، د.ت، صفحة ج٥٣/١) ، وزاد أبن معصوم المدني على قول الشافعي "ولا يحيط بها إلا نبي أو وصي نبي" (المدني، ١٤٢٩هـ، صفحة ج١١/١) ، مما يجعل الاحاطة بها أمراً في غاية الصعوبة، وعليه يكون وضع الأسس التي ينتظم بها سير هذه اللغة من مختصات المعصوم ، لأنّها تمثل أهمّ المنطلقات في أداء المفسر، بل عدّها العلماء من أولويات شروط المفسر، قال السيوطي في معرض حديثه عن شروط المفسر: "وتمام هذه الشرائط أن يكون ممتلئاً من عدة الإعراب لا يلتبس عليه اختلاف وجوه الكلام فإنّه إذا خرج بالبيان عن وضع اللسان إما حقيقة أو مجازا فتأويله تعطيله" (السيوطي ج.، ١٤٢٤هـ ـ ٢٠٠٣م، صفحة ج٤٦٨/٢) ، ثم يبيّن أهمية معرفة الإعراب وذلك بالتمثيل لبعض أخطاء المفسرين، إذ قال: "وقد رأيت بعضهم يفسر قوله تعالى: **{قُلِ اللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ }** (الانعام، صفحة آية٩١) ، إنّه ملازمة قول الله ولم يدر ... أنّ هذه جملة حذف منها الخبر والتقدير الله أنزله" (السيوطي ج.، ١٤٢٤هـ ـ ٢٠٠٣م، صفحة ج٤٦٨/٢) ، الأمر الذي يكشف أنّ الاحاطة باللغة ليست أمراً سهلاً، فضلاً عن وضع قواعدها التي تبتني عليها.

ومن هذا المنطلق فقد أصّل الإمام أمير المؤمنين لقواعد النحو العربي التي مثّلت أهم الركائز والمنطلقات في الأداء التفسيري، فقد تظهر بعض الوجوه التفسيرية بتعدد المدارك النحوية، نظراً لتغير حالات الاعراب (الحجار، د.ت، صفحة ١٥٦) ، ففي قوله تعالى: **{وَإِنْ كَانَ رَجُلٌ يُورَثُ كَلَالَةً}** التي تقدم الكلام عنها، ينبغي للمفسر أن يتعرف على مدلولها، هل هي اسم للميت، أم أنّها اسم للورثة أو المال، فإن كانت اسماً للميت فهي منصوبة على الحال، وإن كانت اسما للورثة فهي منصوبة على الحال أيضاً، وإن كانت اسماً للمال فهي مفعول ثاني، ومن جعل الكلالة هي الوراثة فهي نعت لمصدر محذوف، وهكذا تتعد الوجه الإعرابية، لذا كان القول الفصل في هذه الآية لأئمة أهل البيت (الفراجي، ١٤٢٨هـ ـ ٢٠٠٧م، صفحة ١٣٠) .

فالإعراب وَبِنْيَة الكلمة هما اللذان يتكفلان ببيان المعنى، ويتوصل بهما الباحث إلى ما قُصِدَ من الآية الكريمة، ففي قوله تعالى: **{ ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذلِكَ عامٌ فِيه يُغاثُ النَّاسُ وفِيه يَعْصِرُون}** (يوسف، صفحة آية٤٩) يصحح الإمام أمير المؤمنين فهماً خاطئاً للآية الكريمة، فقد قرأ رجل عليه هذه الآية على البناء للفاعل فقال: "ويحك وأيّ شيء يعصرون، يعصرون الخمر، قال الرجل يا أمير المؤمنين كيف أقرؤها فقال: "إنّما أنزلت عام فيه يغاث الناس وفيه يُعصرون يعني على البناء للمفعول أي يُمطرون بعد المجاعة والدليل على ذلك قوله تعالى: **{ وأَنْزَلْنا مِنَ الْمُعْصِراتِ ماءً ثَجَّاجاً}**" (النبأ، صفحة آية١٤) ، (القمي، د.ت، صفحة ج١/٤٦٠) ؛ (العياشي، د.ت، صفحة ج٢/١٨٠) ، وقد أكد هذه القراءة التي تنسجم مع المعنى الصحيح للآية الإمام الصادق فقد قرأها بضم الياء أي يُمطرون، ثم قال: "أما سمعت قوله: **{وأَنْزَلْنا مِنَ الْمُعْصِراتِ ماءً ثَجَّاجاً}**[1]، ليتسق معنى لفظ (يُعصَرون) على البناء للمفعول مع لفظ (يُغاث) من الغيث أي المطر، وكذلك يتسق مع معنى الآية الأخرى المفسرة لها، بوصف أنّ القرآن يفسر بعضه بعضاً وينطق ببعضه ببعض، فالمطر مصدره المُعْصِرات في السماء، وهذه القراءة هي الأوفق لمعنى الآية.

وتزداد أهمية معرفة عدّة الإعراب والصيغ الصرفية إذا تعلق الأمر بالآيات التي تنطوي على الأحكام الشرعية؛ إذ إنَّ بعضها يحتمل أكثر من وجهٍ نظراً لاختلاف بِنْيَة الكلمة، وهذا التنوع في الأوجه الصرفية والاعرابية يلقي بظلاله على الحكم الشرعي الذي تستبطنه الآية الشريفة، ففي قوله تعالى: **{ولا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّى يَطْهُرْنَ فَإِذا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ الله إِنَّ الله يُحِبُّ التَّوَّابِينَ ويُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ }** (البقرة، صفحة آية٢٢٢) ، فمن قرأ بالتخفيف فمعناه: حتى ينقطع الدم، ومن قرأ بالتشديد فيكون المعنى: حتى يغتسلن.

ومذهب أتباع أهل البيت جواز وطئ المرأة إذا انقطع عنها الدم استناداً إلى ما روي عن أئمة الهدى فعن محمد بن يعقوب عن محمد بن يحيى، عن أحمد بن محمد، عن أبن محبوب، عن العلاء بن رزين، عن محمد بن مسلم، عن أبي جعفر ، في المرأة ينقطع عنها دم الحيض في آخر أيامها، قال: "إذا أصاب زوجها شبق، فليأمرها فلتغسل فرجها ثم يمسها إن شاء قبل أن تغتسل" (الكليني، ١٣٦٣ش، صفحة ج٥/٥٣٩) ؛ (الطوسي، ١٤١٤هـ، صفحة ج٧/٤٨٦) ؛ (البحراني، د.ت، صفحة ج١/٤٦٢) ، وهذا الاختلاف في تحديد دلالة

(١) ظ: تفسير العياشي، العياشي، ٢/١٨٠، والبرهان في تفسير القرآن، البحراني، ٣/١٧٨.

اللفظ، ناشئ من الاختلاف في الأوجه الصرفية والاعرابية للآية الكريمة الذي انعكس على تحديد الحكم الشرعي فيها، فأدى إلى الاختلاف في جواز وطيء الحائض حال انقطاع الدم، كما استدل بعض الفقهاء على حرمة وطأ الحائض بعد نقائها من الحيض وقبل أن تغتسل بقراءة الكوفيين غير حفص، (حتى يَطّهرن) بالتشديد (الخوئي، ١٤١٠هـ . ١٩٨٩م، صفحة ١٨٧) ، الأمر الذي يكشف عن مدى تأثير الحالة الصرفية الاعرابية في تحديد دلالات الآيات القرآنية، لا سيما تلك التي تنطوي على الأحكام الشرعية.

من هذا المنطلق كان الإمام أمير المؤمنين حريص على أنْ يُؤَدّى القرآن الكريم على الوجه الذي نزل فيه، لذا أخذ على عاتقه وضع القواعد والأسس التي يبتني عليها نطق الآيات القرآنية بشكل سليم كي تعطي معانيها الصحيحة، وقد كان يصحح للصحابة بعض أخطائهم في قراءة القرآن الكريم، إذ روي: "أنَّ زيداً لما قرأ (التابوه) قال علي : أُكتبه (التابوت) فكتبه كذلك" (الطبرسي، ١٣٨٦هـ ـ ١٩٦٦م، صفحة ج١/ ٣٢١) ؛ (المجلسي، ١٤٠٣هـ / ١٩٨٣م، صفحة ج٤/ ١٥٦) ، وبهذا الجهد المتميز، والأداء المتفرد، وضع الإمام علي القواعد اللازمة لحفظ القرآن الكريم من خلال ضبط قراءته على وفق أسس وضوابط تمنع من التلاعب بمعانيه بحسب ما هو متعارف على ألسنة الفصحاء من العرب، لأنّ القرآن الكريم نزل على ما هو الأفصح في لغة قريش، وبهذا يخرج كل ما هو شاذ ونادر من أوجه الإعراب التي حاول بعض الفقهاء التمسك بها عناداً بدوافع مذهبية كما هو الحال في قوله تعالى: **{ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ }** (المائدة، صفحة آية٦) في قراءة الجر على المجاورة، وهذا لم يقع في فصيح اللغة عند العرب، أو أنّ وقوعه نادر وذلك في حالات الأمن من اللبس (السبحاني، ١٤٢٣هـ / ١٣٨١م، صفحة ج١/ ٣٠) ، وسوف يأتي الكلام عن هذه الآية في المباحث اللاحقة إن شاء الله (الفراجي، ١٤٢٨هـ ـ ٢٠٠٧م، صفحة ١٣١).

المبحث الثاني

مقاربات لغوية في تفسير القرآن عند أهل البيت

إنّ القرآن الكريم نزل بلغة العرب، فكان حديثه من سنخ ما يعقلون، وما يعرفون، مشتملاً على الحقيقة والمجاز، والإشارة والعبارة، والتقديم والتأخير، والاعتراض والالتفات، "وفي القرآن مثل ما في الكلام العربي من وجوه الإعراب، ومن الغريب، والمعاني، ومن المحتمل من مجاز ما اختصر وفيه مضمر" (التيمي، ١٣٩٠هـ – ١٩٧٠م، صفحة ج١/٨) ، وإلا لما جاز أن يتحدى بلاغتهم وفصاحتهم، قال أبن قتيبة: "إنّ القرآن نزل بألفاظ العرب ومعانيها، ومذاهبها في الايجاز والاختصار، والإطالة والتوكيد، والإشارة إلى الشيء وإغماض بعض المعاني حتى لا يظهر عليه إلاّ اللَّقِنُ، وإظهار بعضها، وضرب الأمثال لما خفي" (الدينوري، د.ت، صفحة ٨٦) ، ولكنَّ ذلك لا يعني أنّ جميع ألفاظه مفهومة لكل من عاصر نزوله من الصحابة وغيرهم؛ "لأنّهم كانوا يفهمون النص وقتذاك فهماً اجمالياً كلياً لا فهماً استيعابياً تفصيلياً" (عبدالزهرة، ١٤٣٦هـ / ٢٠١٥م، صفحة ٤٨) ؛ فالإحاطة باللغة من مختصات الأنبياء والأوصياء (المدني، ١٤٢٩هـ، صفحة ج١/١١) ، هذا من جانب، ومن جانب آخر فقد وظّف القرآن الكريم بعض المفردات توظيفاً يغاير ما اعتاد عليه العرب في بعض مخاطباتهم، فالمفردة لوحدها قد تعطي معنى يغاير معناها وهي مندرجة ضمن السياق القرآني، لأنَّ السياق هو المعني بتوجيه دلالة اللفظ، من هنا وقع الخلاف بين المفسرين في توجيه دلالات بعض الألفاظ، فذهب بعضهم إلى معاني لا تنسجم مع سياق النص القرآني، الأمر الذي يفرض على الباحث أن يلتمس تلك المعاني ممن حباه الله تعالى بعلم القرآن الكريم، واعطاه مفاتيح فهمه، فمن تلك الموارد التي وقع الخلاف فيها بين المفسرين وكان لأئمة أهل البيت فيها الكلمة الفصل:

أولاً: قوله تعالى:{الْيَوْمَ يَئِسَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا فَمَنِ اضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِإِثْمٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ} (المائدة، صفحة آية٣) ، ومن أهم المباحث التي تضمنتها الآية المباركة تحديد المراد من لفظ (اليوم) الذي اجتمعت فيه مجموعة من الأحداث المهمة والمصيرية، التي تتجلى في اليأس الذي دبّ في نفوس الكفار، وإكمال الدين على الصعد والمستويات كافة، وإتمام النعمة على المسلمين، ورضا الله تعالى الدين الإسلامي دينا ختامياً لكل البشرية (الشيرازي، د.ت، صفحة ج٣/ ٥٩٥) ، وعليه فقد اختلفت كلمات المفسرين في تحديد دلالة (اليوم) في هذه الآية، فمنهم من قال: أن المقصود بلفظ (اليوم) هو يوم عرفة وهو قول مقاتل بن سليمان، قال: "يعني يوم عرفة، لم ينزل بعدها حلال ولا حرام، ولا حكم، ولا حد، ولا فريضة، غير آيتين من آخر سورة النساء" (مقاتل، ١٤٢٤هـ / ٢٠٠٣م، صفحة ج١/٣٨٠) ، وهذا القول ناقص ويناقض بعضه بعضاً، لأن النبي k رحل عن الدنيا وبقيت هناك أحكام وتفصيلات لم تستوعبها سنته، ولم يهتدي إلى معرفتها المسلمون، مثل مسألة العول، والطلاق

في الجاهلية وغيرها (البراج، ١٤١١هـ، صفحة ٨) ، ثمّ أنّ هناك أحكاماً نزلت بعد نزول آية**{الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا}**، وهذا ما يظهر من اقرار المفسر نفسه بأنّ هناك أحكاماً نزلت في سورة النساء، وعليه فإنّ ما ذهب إليه مقاتل بن سليمان لا ينسجم مع ما في الآية من أحداث عظيمة بعثت اليأس في نفوس المشركين.

فيما نسب إلى الضحّاك أنّ المقصود بلفظ (اليوم) في الآية الكريمة هو يوم فتح مكة بحسب ما نقل عنه القرطبي، قال: "قال الضحاك: نزلت هذه الآية حين فتح مكة" (القرطبي، ١٤٠٥هـ / ١٩٨٥م، صفحة ج٦/٦١) ، أمَّا الرازي فقد ذكر أقوالاً عدّة منها على سبيل المثال لا الحصر: "أنه ليس المراد هو ذلك اليوم بعينه حتى يقال إنهم ما يئسوا قبله بيوم أو يومين، وإنما هو كلام خارج على عادة أهل اللسان معناه لا حاجة بكم الآن إلى مداهنة هؤلاء الكفار لأنكم الآن صرتم بحيث لا يطمع أحد من أعدائكم في توهين أمركم" (الرازي، صفحة ج١١/١٣٧) ، ومنها أيضاً: "أن المراد به يوم نزول هذه الآية، وقد نزلت يوم الجمعة وكان يوم عرفة بعد العصر في حجة الوداع سنة عشر" (الرازي، صفحة ج١١/١٣٧) ، فيما يرى الزمخشري أنّ اللفظ: "لم يرد به يوماً بعينه وإنما أراد به الزمان الحاضر وما يتصل به ويدانيه من الأزمنة الماضية والآتية كقولك: كنت بالأمس شاباً وأنت اليوم أشيب، فلا تريد بالأمس اليوم الذي قبل يومك ولا باليوم يومك" (الزمخشري، ١٣٨٥هـ / ١٩٦٦م، صفحة ج١/٥٩٣)

وكل ما تقدم من التفسيرات في تحديد دلالة لفظ (اليوم) لا ينسجم مع ما في الآية من أحداث جسام، إذ إنَّ تمام الدين لا يتم بمجرد استكمال منظومة الأحكام الشرعية، وحتى لو سلمنا جدلاً بأنّ الدين قد كَمُلَ بإتمام منظومة أحكامه فإنّ ذلك لا يصح أن يكون سبباً في يأس الكفار من الدين الإسلامي، خصوصاً إذا علمنا أنّ الأحكام والفرائض إنّما هي وسائل ضابطة لتصرفات الإنسان ليس إلاّ، ولم تكن غايات مقصودة بنفسها، بل هي وسائل جُعلت لغايات أسمى منها، ثم إنّ هذا اليوم قد جُمعت فيه احداث عظيمة ومهمة حتى قالت اليهود للخليفة الثاني عمر: "لو علينا معشر اليهود نزلت هذه الآية **{الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا}** نعلم اليوم الذي أنزلت فيه لاتخذنا ذلك اليوم عيدا" (البيهقي، د.ت، صفحة ج٥/ ١١٨) ، وعليه فإضفاء هذه الأهمية على ذلك اليوم يوحي بأنه يوم عظيم لا يقلّ أهمية عن يوم بعث فيه رسول الله k، لأنّه اليوم الذي كَمُل فيه الدين وتمت به النعمة على المسلمين، فلا بدّ من أن يكون تمام الدين بأمر يمثل امتداداً للرسالة الخاتمة، حتى لا تنتهي الرسالة برحيل النبي k عن الدنيا، لذا قال رسول الله k: "الحمد لله على كمال الدين وتمام

النعمة ورضى الرب برسالتي وولاية علي بن أبي طالب" (آشوب، ١٣٧٦ – ١٩٥٦م، صفحة ج٢/٢٢٦) ؛ (الأميني، ١٣٩٧هـ / ١٩٧٧م، صفحة ج١/٢٣٣) .

وعلى هذا الأساس فإنّ تحديد لفظ (اليوم) في يوم الولاية وتنصيب الإمام أمير المؤمنين خليفة للمسلمين يلغي كل الاحتمالات الواردة في تحديد دلالة (اليوم)، وهو ما يتناسب مع بعث اليأس في نفوس المتربصين بالإسلام، لأنَّ "ما يثير اليأس لدى الكفار هو إيجاد دعامة راسخة قوية لمستقبل الإسلام" (الشيرازي، د.ت، صفحة ج٣/ ٥٩٥) ، كما قال الصادق : "يئس الكفرة وطمع الظلمة" (المجلسي، ١٤٠٣هـ / ١٩٨٣م، صفحة ج٣٧/ ١٣٤) ، وبهذا التنصيب تكون الرسالة قد اكتملت، والنعمة قد تمت على المسلمين، وهذا هو المروي عن أئمة أهل البيت في تحديد المراد من لفظة (اليوم) في الآية الكريمة، ففي الأمالي للشيخ الطوسي قال: "أخبرنا الشيخ السعيد أبو عبد الله محمد بن محمد بن النعمان (رحمه الله)، قال: أخبرنا أبو الحسن أحمد بن محمد بن الحسن بن الوليد، قال: حدثنا أبي، قال: حدثنا محمد بن الحسن الصفار، عن أحمد بن أبي عبد الله البرقي، عن أبيه، عن محمد بن أبي عمير، عن المفضل بن عمر، عن الصادق جعفر بن محمد ، قال: قال أمير المؤمنين : أعطيت تسعا لم يعط أحد قبلي سوى النبي k: لقد فتحت لي السبل، وعلمت المنايا، والبلايا، والأنساب، وفصل الخطاب، ولقد نظرت في الملكوت بإذن ربي، فما غاب عني ما كان قبلي ولا ما يأتي بعدي، وأنّ بولايتي أكمل الله لهذه الأمة دينهم وأتم عليهم النعمة ورضي اسلامهم إذ يقول سبحانه يوم الولاية لمحمد k يا محمد اخبرهم أني أكملت لهم دينهم ورضيت الإسلام لهم ديناً وأتممت عليهم نعمتي كل ذلك من منِّ الله تعالى، منَّ به عليَّ فله الحمد" (الطوسي، ١٤١٤هـ، صفحة ٢٠٥).

وبهذا التفسير تتلاشى كل الاحتمالات الواردة في تحديد دلالة لفظ (اليوم)، لأنّه الأكثر توافقاً مع كثرة الدلائل الموجودة في الآية الكريمة، من جسامة الأحداث، واجتماعها في نص واحد، وفي يوم واحد، الأمر الذي أكسب هذا اليوم أهمية كبرى في حياة المسلمين، إذ ليس هناك حدث يوازي حدث تنصيب الإمام علي من شأنه أن يبعث اليأس في نفوس الكافرين.

ومما يؤكد هذا التفسير قول الإمام الصادق : "لما نزل رسول الله k عرفات يوم الجمعة أتاه جبرئيل فقال له: يا محمد إنَّ الله يُقرئُك السلام ويقول لك: قل لامتك: اليوم أكملت لكم دينكم بولاية علي بن أبي طالب

وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام ديناً ولست أُنزل عليكم بعد هذا، قد أنزلت عليكم الصلاة والزكاة والصوم والحج وهي الخامسة ولست أقبل هذه الأربعة إلّا بها" (العياشي، د.ت، صفحة ج١/٢٩٣) ؛ (المجلسي، ١٤٠٣هـ / ١٩٨٣م، صفحة ج١٣٨/٣٧) ، إذ إنَّها آخر ما كلف الله تعالى به المسلمين قبيل وفاة النبي k فعن زرارة عن أبي جعفر أنَّ الفريضة كانت تنزل ثم تنزل الفريضة الأخرى فكانت الولاية آخر الفرائض فأنزل الله: **{الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا}** ، فقال أبو جعفر: يقول الله: لا أُنزل عليكم بعد هذه الفريضة فريضة" (العياشي، د.ت، صفحة ج١/٢٩٣) ؛ (المجلسي، ١٤٠٣هـ / ١٩٨٣م، صفحة ج١٣٨/٣٧) .

وبهذا يتضح أنّ كل ما قيل في تفسير الآية الكريمة لا يتلاءم مع ما ذهب إليه الإمام من أنّ ذلك اليوم هو يوم الولاية، "والظاهر أنّ مرتكزات القاعدة النحوية تعين على ترجيح مقولة الإمام دون غيرها من المقولات البيانية لمضمون (اليوم) في الآية؛ ذلك بأنّ (الـ) في قوله (اليوم) تقتضي التخصيص العهدي" (عبدالزهرة، ١٤٣٦هـ / ٢٠١٥م، صفحة ١٩٧) ، أي أنّ الف واللام في لفظ (اليوم) لا تقتضي العموم وإنّما تقتضي التخصيص بيوم معهود، لذا فقد وجهها أئمة أهل البيت الوجهة الصحية نحو يوم يمتاز بأهمية كبيرة، ليس كباقي الأيام وهو يوم غدير خم الذي يرضي الله تعالى به الدين الاسلامي ديناً خاتماً للديانات كافة.

ثانياً: قوله تعالى: {وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ مِنْكُمْ طَوْلًا أَنْ يَنْكِحَ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ فَمِنْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِنْ فَتَيَاتِكُمُ الْمُؤْمِنَاتِ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِكُمْ بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ فَانْكِحُوهُنَّ بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ وَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ مُحْصَنَاتٍ غَيْرَ مُسَافِحَاتٍ وَلَا مُتَّخِذَاتِ أَخْدَانٍ } (النساء، صفحة آية٢٥) ، نزلت هذه الآية في سياق بيان شروط التزويج بالإماء، "أي من لم يجد قدرة مالية على أن يتزوج بالحرائر من النساء المؤمنات، وليس لديه ما يقدر على مهرهن ونفقتهن، فإن له أن يتزوج ممّا ملكت أيمانكم من الإماء، فإن مهورهن أقل، ومؤونتهن أخف عادة" (الشيرازي، د.ت، صفحة ج٣/ ١٩٣) ، ولعلّ هذا ما ذهب إليه أغلب المفسرين، غير أنّهم اختلفوا في معنى الطَوْل الذي ذكره الله تعالى في هذه الآية، فقال بعضهم: "هو الفضل والمال والسعة، فعن مجاهد في قوله: **{وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ مِنْكُمْ طَوْلًا أَنْ يَنْكِحَ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ ...}**، أي "من لم يجد غنى" (مجاهد، د.ت، صفحة ج١/ ١٥٢) ، كما يروى مثل ذلك عن سعيد بن جبير، فقد قال: الطول: "الغنى" (الجصاص، ١٤١٥هـ / ١٩٩٤م، صفحة ج١٩٨/٢) ، فيما روي عن ابن عباس، وعن قتادة، ومقاتل بن سليمان: أنَّ المراد: "من لم يكن له سعة" (مقاتل، ١٤٢٤هـ /

٢٠٠٣م، صفحة ج١/٢٢٤) ؛ (الجصاص، ١٤١٥هـ / ١٩٩٤م، صفحة ج١٩٨/٢) ، أما عكرمة فيرى أنّ الطَوْل: بمعنى المنّ، فذي الطول ذي المنّ (الشوكاني، صفحة ج٤/ ٤٨١) .

وتَطَرّفَ بعضهم فقال الطول في الآية الكريمة هو الهوى، أي أنّه إذا أحبّ الأمةَ وإن كان قادراً على نكاح غيرها فله أن ينكحها، فعن عبد الجبار بن عمرو، عن ربيعة أنّه قال في قول الله: **{وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ مِنْكُمْ طَوْلًا }**، قال: "الطول الهوى، قال: ينكح الأَمَةَ إذا كان هواهُ فيها" (الطبري، ١٤٢٠ هـ / ٢٠٠٠ م ، صفحة ج٥/ ٢٣) ، أمَّا الطبري فيرى أنَّ الطول هو الافضال، قال في جامع البيان: "وأصل الطول الإفضال، يقال منه طال عليه يطول طولاً في الافضال، وطال يطول طولاً في الطول الذي هو خلاف القصر" (الطبري، ١٤٢٠ هـ / ٢٠٠٠ م ، صفحة ج٥/ ٢٣)، وهكذا فقد توالت التوجيهات والتفسيرات للفظ (الطَوْل) وقد خالف بعضها بعضاً.

بيد أنّ ما روي عن أئمة أهل البيت يغاير ما ذهب إليه اهل التفسير والتأويل، فنجد أنّ معنى لفظ (الطَوْل) في منظور أهل البيت الوارد في قوله تعالى: **{وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ مِنْكُمْ طَوْلًا أَنْ يَنْكِحَ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ}** يعني المهر، فعن محمد بن يحيى، عن أحمد بن محمد، عن أبن فضال، عن أبن بكير، عن بعض أصحابنا، عن أبي عبد الله الصادق قال: "لا ينبغي أن يتزوج الرجل الحر المملوكة اليوم إنما كان ذلك حيث قال الله عز وجل: **{وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ مِنْكُمْ طَوْلًا}**، والطول المهر، ومهر الحرة اليوم مهر الأمة أو أقل" (الكليني، ١٣٦٣ش، صفحة ج٥/٣٦٠) ؛ (الطؤسي، ١٣٦٥ ش، صفحة ج٧/٣٣٤) ؛ (العاملي، ١٤١٨ / ١٣٧٦ ش، صفحة ج٢٠/ ٥٠٨).

ويمكن عدّ هذا التفسير الأوفق للآية الكريمة لأنّ الآية تتحدث عن شروط الزواج من الإماء في حال عدم القدرة على دفع مهر الحرة، لأنّ امتلاك المهر لا يعني بالضرورة أن يكون الإنسان غنياً أو ذا سعة من المال، إذ إنَّ المهر قابل للزيادة والنقيصة حال التراضي بين الطرفين قال تعالى: **{وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا تَرَاضَيْتُمْ بِهِ مِنْ بَعْدِ الْفَرِيضَةِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا}** (النساء، صفحة ’ية٢٤) ، "وهو بذلك يشير إلى أنه لا مانع من التغيير في مقدار الصداق إذا تراضى طرفا العقد، وعلى هذا الأساس يكون الصداق نوعاً من الدَيْنِ الذي يخضع للتغيير من زيادة أو نقصان إذا تراضيا" (الشيرازي، د.ت، صفحة ج٣/١٩٠) ، ومما يجعل تفسير الإمام هو أوفق التفاسير اتفاقه مع أقوال علماء اللغة مثل الزجاج والراغب في مفرداته، قالَ الزَّجَّاجُ: "مَعْنَاهُ مَنْ لَمْ يَقْدِرْ مِنْكُمْ عَلى مَهْرِ

الحُرَّةِ، قال: والطَّوْلُ: القُدْرَةُ عَلى المَهْرِ" (الزبيدي، ١٤١٤هـ / ١٩٩٤م، صفحة ج١٥/٤٤٧) ، أما الراغب فقال هو: "كِنَايَةٌ عَمَّا يُصْرَفُ إلى المَهْرِ والنَّفَقَةِ" (الاصفهاني، ١٤٠٤هـ، صفحة ٣١٢).

أمّا من فسّر الطول بمعنى المنّ، والهوى، أو الفضل، فهو ينأى بالآية بعيداً عن مقصودها موضوعها التي نزلت فيه، وأمّا من فسّره بالغنى فتفسيره ليس ببعيد بوصف أنّ الغنى أحد مصاديق الطول (الطباطبائي، د.ت، صفحة ج٤/٢٨٨) ، إلّا أنّ تحديد دلالة لفظ (الطول) بالمهر من قبل الإمام الصادق هو الأكثر توافقاً وانسجاماً مع الآية الكريمة، لأنّها تتحدث عن زواج الإماء والزواج يستلزم الحديث عن المهر.

ثالثاً: قوله تعالى: {مَا قَطَعْتُمْ مِنْ لِينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَائِمَةً عَلَى أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ اللَّهِ وَلِيُخْزِيَ الْفَاسِقِينَ} (الحشر، صفحة آية٥) ، هذه الآية نزلت تنكيلاً بيهود بني النظير عندما أمر رسول الله k بقطع نخيلهم (الطباطبائي، د.ت، صفحة ج٩/١٢٧) ، وقد يعترض معترض على هذا العمل بوصفه منافياً للتعاليم والقيم التي جاء بها الإسلام، غير أنّ له ما يُسوّغه لأنّه مرتبط بمورد معين يندرج ضمن مناورات الحرب والتخطيط لها، إذ يرمي إلى إثارة العدو عن طريق قطع الجيد من نخيله لإخراجه من القلعة التي يتحصن بها وجرّه إلى موقع أنسب للقتال (الشيرازي، د.ت، صفحة ج١٨/١٧٤) ، لذا قال السيد الطباطبائي: "فلما قطع بعضها نادوه يا محمد قد كنت تنهى عن الفساد في الأرض فما بال النخيل تقطع فنزلت الآية فأجيب عن قولهم بأن ما قطعوا من نخلة أو تركوها قائمة على أصولها فبإذن الله، ولله في حكمه هذا غايات حقَّة وحِكَم بالغة منها إخزاء الفاسقين وهم بنو النضير" (الطباطبائي، د.ت، صفحة ج١٩/ ٢٠٣) .

هذا المعنى يكاد يجمع عليه جلُّ المفسرين من الفريقين، إلاّ إنَّ المورد الذي وقع فيه الخلاف بين المفسرين هو تحديد المراد بلفظ (لينة) في الآية الكريمة، قال الطبري في جامع البيان: "اختلف أهل التأويل في معنى (اللينة) فقال بعضهم: "هي جميع أنواع النخل سوى العجوة" (الطبري، ١٤٢٠ هـ / ٢٠٠٠ م ، صفحة ج٢٨/٤٢) ، ثم استعرض الآراء المنقولة عن مفسري الصحابة والتابعين في تحديد معنى (لينة) فنقل عن أبن عباس أنها: النخلة دون العجوة (الطبري، ١٤٢٠ هـ / ٢٠٠٠ م ، صفحة ج٢٨/٤٢) ، واستعرض رأي عكرمة في معنى (لينة) أنّها: ما دون العجوة من النخل (الطبري، ١٤٢٠ هـ / ٢٠٠٠ م ، صفحة ج٢٨/٤٢) ؛ (الثعلبي، ١٤٢٢هـ، صفحة ج٩/٢٩٠) ، ونقل أقوالاً كثيرة عن مفسري التابعين، مثل قتادة الذي قال هي: النخل كله ما خلا العجوة

(الطبري، ١٤٢٠ هـ / ٢٠٠٠ م ، صفحة ج٤٢/٢٨) ؛ (الجوزي، ١٤٠٧هـ / ١٩٨٧م، صفحة ج٣٣٤/٧) ، وما إلى ذلك من الاقوال التي فسرتها بالنخلة من دون استثناء نوع من أنواعها.

وهذه الاقوال وغيرها مما نقله الطبري وغيره وإن كان فيها شيء من التقارب إلاّ أنّها لم تعطي تفسيراً دقيقاً لمعنى (لينة) لذ يرى الطبري وغيره أنّ المفسرين قد اختلفوا في تحديد معناها الحقيقي، وهذا ما أكّده حسن مصطفوي أيضاً بقوله: "وقد اشتبه هذا اللفظ الوارد في القرآن الكريم على أهل اللغة والتفسير، وقالوا فيه أقاويل مختلفة لا تغنى عن الحقّ" (المصطفوي، ١٤١٧هـ، صفحة ج٢٨٠/١٠)، فتفسيرها بمطلق النخل هو تجوّز، إذ إنَّ المعنى الحقيقي لهذا اللفظ يكمن في بيانات أهل البيت فقد حدَّد الإمام الصادق دلالة لفظ (لينة) في قوله تعالى: **{مَا قَطَعْتُمْ مِنْ لِينَةٍ }**، بالعجوة، كما في رواية الكليني: "عن الحسين بن محمد، عن معلى بن محمد، عن الوشاء، عن أحمد بن عائذ، عن أبي خديجة، عن أبي عبد الله قال: العجوة أم التمر وهي التي أنزلها الله عز وجل من الجنة لآدم وهو قول الله عز وجل: **{مَا قَطَعْتُمْ مِنْ لِينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَائِمَةً عَلَى أُصُولِهَا}** قال: "يعني العجوة" (الكليني، ١٣٦٣ش، صفحة ج٦/ ٢٤٧) ؛ (البحراني، د.ت، صفحة ٣٣٣) ، فيكون تفسيرها بغير العجوة تجوزاً؛ فـ "العجوة ضرب من أجود التمر بالمدينة ونخلتها تسمى لينة" (منظور، ١٤١٣هـ / ١٩٩٣م، صفحة ج١٥،٣١) وهذه التسمية مأخوذة من اللون "باعتبار حصول اللون وبدوّه في حال النضج" (المصطفوي، ١٤١٧هـ، صفحة ج٢٨٠/١٠) ، وهو نوع مخصوص من النخل، لذا قال الراغب الاصفهاني، **{ما قَطَعْتُمْ مِنْ لِينَةٍ}** أي: "من نخلة ناعمة" (الاصفهاني، ١٤٠٤هـ، صفحة ٦٩٠) ، أي ليس كباقي النخيل.

وبهذا يكون الإمام الصادق قد تفرد في بيان دلالة لفظ (لينة) عن غيره من المفسرين، إذ حدّده بنوع خاص من النخل، وقد وافقه في ما ذهب إليه أهل العربية وأئمتها، في حين ذهب غيره إلى خلاف ذلك دونما دليل، ويأتي هذا البيان من إحاطته التامة بمفردات اللغة وأساليبها، بحكم أنّ الإحاطة بها من مختصات المعصوم .

رابعاً: قوله تعالى: { أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِنَ الْمُلْكِ فَإِذًا لَا يُؤْتُونَ النَّاسَ نَقِيرًا أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُمْ مُلْكًا عَظِيمًا} (النساء، صفحة آية٥٤) ، يدور معنى الآية الأولى بين نفي ملك بني اسرائيل، وبين التساؤل عن أولويتهم بالنبوة، ويتلخص معناها بحسب ما ذكره السيد الطباطبائي من أنّها في مقام التساؤل: "أم لهم نصيب من الملك الذي أنعم الله به على نبيه بالنبوة والولاية والهداية

ونحوه ولو كان لهم ذلك لم يؤتوا الناس أقل القليل الذي لا يعتد به لبخلهم وسوء سريرتهم" (الطباطبائي، د.ت، صفحة ج٣٧٦/٤) ، وهذا القليل عبّر عنه القرآن الكريم بالنقير، الذي فسّره أئمة أهل البيت بالنقطة التي في وسط النواة، كما في جواب الإمام أبي جعفر الباقر لبريد العجلي: "والنقير النقطة التي في وسط النواة" (الكليني، ١٣٦٣ش، صفحة ج٢٠٥/١) ؛ (العياشي، د.ت، صفحة ج٢٤٦/١) ؛ (البحراني، د.ت، صفحة ج٩٣/٢) ، غير إنَّ الاختلاف وقع في تحديد المعنيّ بلفظ (الناس) قال: مقاتل بن سليمان: يعني النبي k "حسدوه على النبوة وعلى كثرة النساء" (مقاتل، ١٤٢٤هـ / ٢٠٠٣م، صفحة ٢٣٥) ؛ (السيوطي ج.، ١٤٢٤هـ ـ ٢٠٠٣م، صفحة ج٤٣/٢) ، ومثله قول أبن عباس، وعكرمة، ومجاهد، والسدي، فيما قال آخرون ومنهم قتادة: إنما عنى بالناس العرب على ما آتاهم الله تعالى من فضله (الطبري، ١٤٢٠ هـ / ٢٠٠٠ م ، صفحة ج١٩١/٥، ١٩٢) ؛ (النحاس، ١٤٠٩هـ، صفحة ج١١٤/٢) ؛ (القرطبي، ١٤٠٥هـ / ١٩٨٥م، صفحة ج٥٨/٢).

فهذه الأقوال الواردة في تحديد دلالة لفظ (الناس) لا تنسجم مع معنى الآية، لأنَّ "المراد بالناس على ما يدل عليه هذا السياق هم الذين آمنوا وبما آتاهم الله من فضله هو النبوة والكتاب والمعارف الدينية" (الطباطبائي، د.ت، صفحة ج٣٧٦/٤) ، فتكون بعض المعاني التي قيلت في الآية بعيدة كل البعد عن مراد الله تعالى، لا سيما وإنّ منها ما لا ينسجم مع سياق الآية، كحسد اليهود للعرب؛ لأنّ حسد اليهود للعرب لوجود النبي k فيهم يبتعد عن معنى الآية؛ إذ إنَّ المحسودين من آل إبراهيم، نعم من تلك التوجيهات ما يلامس جانب معين من جوانب الآية دون الجوانب الأخرى، بوصف أنّ المراد بآل إبراهيم "النبي أو هو وآله " (الطباطبائي، د.ت، صفحة ج٣٧٦/٤).

وهذا المعنى مروي عن أئمة أهل البيت رواية مستفيضة، وبطرق كثيرة مودعة في جوامع الشيعة، مثل الكافي والتهذيب والأمالي والبصائر والمعاني وتفسيري القمي والعياشي وغيرها، ففي الكافي: "عن الحسين بن محمد بن عامر الأشعري، عن معلى بن محمد قال: حدثني الحسن أبن علي الوشاء، عن أحمد بن عائذ، عن أبن أذينة، عن بريد العجلي قال: سألت أبا جعفر عن قول الله عز وجل: **{ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ }** (النساء، صفحة آية٥٩) فكان جوابه: **{ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَؤُلَاءِ أَهْدَى مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلًا}** (النساء، صفحة آية٥١) ، يقولون لأئمة الضلالة والدعاة إلى النار: هؤلاء أهدى من آل محمد سبيلاً ، **{أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ وَمَنْ يَلْعَنِ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ نَصِيرًا}** (النساء، صفحة آية٥٢) ، **{ أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِنَ الْمُلْكِ}** يعني الإمامة والخلافة، **{فَإِذًا لَا يُؤْتُونَ النَّاسَ**

نَقِيرًا} نحن الناس الذين عنى الله، والنقير النقطة التي في وسط النواة، **{أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آَتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ}** نحن الناس المحسودون على ما أتانا الله من الإمامة دون خلق الله جميعاً، **{فَقَدْ آَتَيْنَا آَلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآَتَيْنَاهُمْ مُلْكًا عَظِيمًا}**، يقول: فجعلنا منهم الرسل والأنبياء والأئمة فكيف يقرون به في آل إبراهيم وينكرونه في آل محمد k ..." (الكليني، ١٣٦٣ش، صفحة ج١/ ٢٠٥) .

ولم يقف اختلاف أهل التفسير والتأويل عند تحديد المراد من لفظ (الناس) في هذه الآية بل امتد ليشمل المقصود من لفظ **{مُلْكًا عَظِيمًا}** في الآية التي تلتها، لذا قال الطبري: "واختلف أهل التأويل في معنى (الملك العظيم) الذي عناه الله في هذه الآية" (الطبري، ١٤٢٠ هـ / ٢٠٠٠ م ، صفحة ج٥/١٩٤) ، ثم قام باستعراض آراء مفسري الصحابة والتابعين، فقد نقل عن أبن عباس أنّ المراد من قوله تعالى: **{وَآَتَيْنَاهُمْ مُلْكًا عَظِيمًا}** يعني ملك سليمان، ونقل عن السدي وغيره أنّ المقصود بالملك العظيم هو النساء، وهناك أقوال أخرى كتلك التي تقول أن المقصود من الملك العظيم أنّ الله أيدهم بالملائكة والجنود (الطبري، ١٤٢٠ هـ / ٢٠٠٠ م ، صفحة ج٥/١٩٤) ، وقال مجاهد في معنى الملك العظيم، "يعني النبوة فمنهم من آمن بما أنزل على محمد يعني اليهود ومنهم من صدّ عنه" (مجاهد، د.ت، صفحة ج١/١٦٢) ، وقال مقاتل بن سليمان: "حسدوه على النبوة وعلى كثرة النساء" (مقاتل، ١٤٢٤هـ / ٢٠٠٣م، صفحة ٢٣٥) ، غير أنَّ هذه التوجيهات لا تنسجم مع معنى الآية الكريمة.

وبالرجوع إلى الموروث التفسيري لأهل البيت نجد التشخيص الصحيح لمعنى قوله تعالى:**{مُلْكًا عَظِيمًا}** إذ يميط الإمام الباقر اللثام عن معنى العظمة في هذا الملك المعطى، فقد كشف عن ذلك في معرض جواب لبريد العجلي حين سأله عن قوله **{وَآَتَيْنَاهُمْ مُلْكًا عَظِيمًا}:** ما الملك العظيم، قال: "أن جعل منهم أئمة من أطاعهم أطاع الله، ومن عصاهم عصى الله، فهو الملك العظيم" (العياشي، د.ت، صفحة ٢٤٦) ؛ (الكليني، ١٣٦٣ش) ؛ (المجلسي، ١٤٠٣هـ / ١٩٨٣م، صفحة ج٢٣/٢٩٠) ، فقد فسر الإمام الملك العظيم بالطاعة، وهذا التفسير ينسجم تمام الانسجام مع لفظ (عظيماً)، فأي ملك أكثر وأعظم من الطاعة والانقياد، لذا فقد أكد هذا المعنى في رواية أخرى نقلها الكليني في الكافي: "عن محمد بن يحيى، عن أحمد بن محمد، عن الحسين بن سعيد، عن حماد بن عيسى عن الحسين بن المختار، عن بعض أصحابنا، عن أبي جعفر في قول الله عز وجل: **{... وَآَتَيْنَاهُمْ مُلْكًا عَظِيمًا}** قال: "الطاعة المفروضة" (الكليني، ١٣٦٣ش، صفحة ج١/١٨٦) ؛ (العياشي، د.ت، صفحة ج١/٢٤٦) ؛ (القمي، د.ت، صفحة ج١/١٤٠) .

وهذا البيان ينسجم تماماً مع لفظ (ملكاً عظيماً)؛ لأنَّ الطاعة المفروضة والواجبة على الناس تستلزم انقياد الأمة لهم، إذ إنَّها تمثل زعامة عامة ورياسة وسلطنة مطلقة على جميع البشر، لذا كان تفسير الإمام أبي جعفر يمتاز بسمة التفرد، لأنّ الطاعة المفروضة تعدُّ من أجلى مصاديق العظمة، وأعلى مراتب الملك والسلطان، وعلى هذا الأساس صار ملك سليمان بن داود ملكاً عظيماً لأنّه ناظرٌ إلى الطاعة والانقياد المفروضة على الإنس والجن والشياطين والطيور وغيرها إلى سلطانه وملكه.

الخاتمة:

تُعدُّ معرفة أساليب اللغة من العلوم الساندة لتفسير القرآن الكريم؛ إذ لا يمكن عزل التفسير عن العلوم الواقعة في طريق تحصيله، وعليه فقد توصل الباحث من دراسة هذا الموضوع إلى مجموعة من النتائج:

١. لا بدَّ للمفسر من دراسة المناهج التفسيرية على وفق منظومة متكاملة تستوعب كل ما من شأنه أن يقع في طريق استنباط المعاني القرآنية، مثل علوم القرآن التي تُعدُّ أصولاً ساندة لتفسير القرآن الكريم، وعلوم اللغة التي تمثل الوعاء الذي نزل به الكتاب العزيز، وما إلى ذلك من العلوم، فكلما ازداد إلمام المفسر بتلك العلوم كلما كان تفعيله للقواعد والأسس التفسيرية اقوى.
٢. لا يختلف اثنان على أنّ سلامة النطق تعني سلامة المعنى، وعليه فإنّ سلامة منطق الآيات القرآنية تستلزم سلامة المعاني المتوخاة من الفاظها، إذ إنّ هذا الاهتمام بضبط أواخر الكلمات، إنّما يُقصد منه أساساً المعنى، فعلى المعنى يدور ضبط الكلمة وإعرابها، فالفاعل يرفع، والمفعول به ينصب، وما لحقه من الجرّ بسبب من أسبابه يجر.
٣. رصد الباحث تشديد أهل البيت على ضرورة الإلمام بعلوم اللغة للوصول إلى معاني القرآن الكريم ورصد دلالاته.
٤. تبين للباحث أنَّ المعصوم وحده من تقع عليه مسؤولية وضع الأسس والقواعد والأصول للعلوم كافة، ومنها أصول التفسير، انطلاقاً من أهليته لذلك.
٥. توصل الباحث إلى أنّ منهجية الدليل والبرهنة على صحة المضمون التفسيري هي المعيار الأساس الذي اعتمده أهل البيت في تفسيرهم لأغلب نصوص القرآن الكريم، الأمر الذي اضفى على تفسيرهم سمة التميُّز.

المصادر والمراجع

❖ القرآن الكريم.

أبن أبي حاتم (ت : ٣٢٧هـ) الرازي. (د.ت). *تفسير القرآن العظيم (تفسير أبن أبي حاتم)، تحقيق: أسعد محمد الطبيب*. بيروت ـ لبنان: دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع.

أبو الحسن علي بن إبراهيم ، (ت : ٣٢٩هـ) القمي. (د.ت). *تفسير القمي، صححه وقدم له وعلق عليه: طيب الموسوي الجزائري*. قم / ايران: مؤسسة دار الكتاب للطباعة والنشر.

أبو الطيب عبد الواحد بن علي (ت: ٣٥١هـ) الحلبي. (١٣٧٥هـ / ١٩٥٥م). *مراتب النحويين، تحقيق، تعليق: أحمد ابو الفضل ابراهيم*. القاهرة: مكتبة النهضه، الفجالة .

أبو القاسم الحسين بن محمد المعروف بالراغب (ت: ٥٠٢هـ) الاصفهاني. (١٤٠٤هـ). *مفردات غريب القرآن، ، ط/٢ .*

أبو بكر أحمد بن علي الرازي (ت٣٧٠هـ) الجصاص. (١٤١٥هـ / ١٩٩٤م). *أحكام القرآن، تحقيق: عبد السلام محمد علي شاهين* (المجلد ط١). بيروت – لبنان: دار الكتب العلمية.

أبو جعفر (ت : ٣١٠ هـ) الطبري. (١٤٢٠ هـ / ٢٠٠٠ م). *جامع البيان في تأويل القرآن، محمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب الآملي،تحقيق: صدقي جميل العطار*. دار الفكر.

أبو جعفر أحمد بن محمد (ت: ٣٣٨هـ) النحاس. (١٤٠٩هـ). *معاني القرآن، تحقيق: محمد علي الصابوني، ط/١ .*

أبو جعفر محمد بن الحسن (ت٤٦٠هـ) الطوسي. (١٤١٤هـ). *الأمالي، تحيق: قسم الدراسات الإسلامية، مؤسسة البعثة* (المجلد ط١). قم: دار الثقافة للطباعة والنشر والتوزيع.

أحمد بن الحسين (ت٤٥٨هـ) البيهقي. (د.ت). *السنن الكبرى*. دار الفكر.

أحمد بن علي بن أبي طالب (ت ٥٤٨هـ) الطبرسي. (١٣٨٦هـ ـ ١٩٦٦م). *الاحتجاج، تحقيق: تعليق وملاحظات: محمد باقر الخرسان*. النجف الأشرف: دار النعمان للطباعة والنشر.

أحمد بن عمر بن إبراهيم المالكي (ت٦٧١هـ) القرطبي. (١٤٠٥هـ / ١٩٨٥م). *الجامع لأحكام القرآن، تحقيق: تصحيح: أبو إسحاق إبراهيم أطفيش*. بيروت / لبنان: دار إحياء التراث العربي.

الإمام محمد بن إدريس (ت٢٠٤هـ) الشافعي. (١٤٠٠هـ). *أحكام القرآن، تحقيق: عبد الغني عبد الخالق*. بيروت: دار الكتب العلمية.

الثعلبي (ت٤٢٧هـ) الثعلبي. (١٤٢٢هـ). *تفسير الثعلبي، تحقيق: ابي محمد بن عاشور* (المجلد ط١).

الحافظ أبو عبد الله الحاكم (ت: ٤٠٥هـ) النيسابوري. (د.ت). *المستدرك على الصحيحين، تحقيق: إشراف: يوسف عبد الرحمن المرعشلي*.

الدكتور عثمان حسين عبد الله الفراجي. (١٤٢٨هـ ـ ٢٠٠٧م). *التفسير اللغوي وأثره في أظهار المعاني القرآنية*. العراق / بغداد: مركز البحوث والدراسات الإسلامية.

السيد أبو القاسم (ت١٤١١هـ) الخوئي. (١٤١٠هـ . ١٩٨٩م). *البيان في تفسير القرآن*. النجف الأشرف: منشورات دار العلم للأمام السيد الخوئي.

السيد حسن أبن عبد الكريم أبن علي ابن محمد (ت :١٣٧١هـ) الأمين. (د.ت). *أعيان الشيعة، تحقيق وتخريج: حسن الأمين*. بيروت – لبنان: دار التعارف للمطبوعات.

السيد هاشم بن سليمان بن إسماعيل (ت ١١٠٧هـ) البحراني. (د.ت). *البرهان في تفسير القرآن، تحقيق: قسم الدراسات الاسلامية*. قم: مؤسسة البعثة.

الشيخ أبو جعفر محمد بن الحسن (ت٤٦٠هـ) الطؤسي. (١٣٦٥ ش). *تهذيب الأحكام، تحقيق: السيد حسن الموسوي الخرسان* (المجلد ط٤). طهران: دار الكتب الإسلامية.

الشيخ أبو جعفر محمد بن يعقوب بن إسحاق الرازي (ت٣٢٩هـ) الكليني. (١٣٦٣ش). *الكافي، تحقيق: تصحيح وتعليق: علي أكبر الغفاري* (المجلد ط٥). طهران: دار الكتب الإسلامية.

الشيخ جعفر السبِحاني. (١٤٢٢هـ). *المناهج التفسيرية في علوم القرآن، ط/٢* . مؤسسة الإمام الصادق.

الشيخ جعفر السبحاني. (١٤٢٣هـ / ١٣٨١م). *الإنصاف في مسائل دام فيها الخلاف* (المجلد ط١). مؤسسة الإمام الصادق.

الشيخ جعفر السبحأني. (د.ت). *الإيمان والكفر في الكتاب والسنة.*

الشيخ حسن المصطفوي. (١٤١٧هـ). *التحقيق في كلمات القرآن الكريم* (المجلد ط١). مؤسسة الطباعة والنشر وزارة الثقافة والإرشاد الإسلامي.

الشيخ عبد علي العروسي (ت: ١١١٢هـ) الحويزي. (١٤١٢هـ / ١٣٧٠ش). *تفسير نور الثقلين،تحقيق: هاشم الرسولي المحلاتي، ط/٤، .*

الشيخ محمد باقر (ت١١١١هـ) المجلسي. (١٤٠٣هـ / ١٩٨٣م). *بحار الأنوار*. بيروت / لبنان: مؤسسة الوفاء.

الشيخ محمد بن الحسن الحر (ت ١١٠٤هـ) ألعاملي. (١٤١٤هـ). *وسائل الشيعة إلى تحصيل مسائل الشريعة، تحقيق: مؤسسة آل البيت Γ لإحياء لتراث، ط/٢* . قم المقدسة: الناشر: مؤسسة آل البيت Γ لإحياء التراث.

الشيخ محمد بن محمد بن النعمان (٣٦٦ ـ ٤١٣هـ) المفيد. (١٤١٤هـ). *الإرشاد ، تحقيق: مؤسسة آل البيت لتحقيق التراث* (المجلد ط٢). بيروت ـ لبنان: دار المفيد.

الشيخ ناصر مكارم الشيرازي. (د.ت). *الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل.*

العلامة عبد الحسين أحمد (ت١٣٩٢هـ) الأميني. (١٣٩٧هـ / ١٩٧٧م). *الغدير* (المجلد ط٤). بيروت / لبنان: دار الكتاب العربي.

العلامة محمد حسين ، (ت١٤٠٢هـ) الطباطبائي. (د.ت). *الميزان في تفسير القرآن*. قم المشرفة: مؤسسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرسين.

القاضي أبن (ت :٤٨١هـ) البراج. (١٤١١هـ). *جواهر الفقه، تحقيق: إبراهيم بهادري* (المجلد ط١). قم المشرفة: مؤسسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرسين.

بدر الدين محمد بن عبد الله (ت ٧٩٤هـ) الزركشي. (١٤٢٥هـ / ٢٠٠٤م). *البرهان في علوم القرآن، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم* (المجلد ط١). صيدا ـ بيروت: المكتبة العصرية.

بن جبر(ت ١٠٤هـ) مجاهد. (د.ت). *تفسير مجاهد، تحقيق: عبد الرحمن الطاهر بن محمد السورتي*. إسلام آباد: مجمع البحوث الإسلامية.

بو الليث نصر بن محمد بن إبراهيم (ت٣٧٣هـ) السمرقندي. (د.ت). *تفسير السمرقندي، اتحقيق: د. محمد مطرجي*.

جلال الدين ، (ت ٩١١هـ) السيوطي. (د.ت). *الدر المنثور في التفسير بالمأثور* . بيروت / لبنان: دار المعرفة للطباعة والنشر .

جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر (ت٩١١هـ) السيوطي. (١٤٢٤هـ ـ ٢٠٠٣م). *الاتقان في علوم القرآن، ضبطه وصححه وخرّج آياته: محمد سالم هاشم*. بيروت ـ لبنان: دار الكتب العلمية.

سيد محمد طنطاوي. (د.ت). *التفسير الوسيط للقرآن الكريم*.

سيروان عبد الزهرة الوائلي. (١٤٣٦هـ ـ ٢٠١٥م.). *مناهج تفسير النص القرآني/ دراسة في النظرية والتطبيق ، ط/١* .

سيروان عبدالزهرة. (١٤٣٦هـ / ٢٠١٥م). *فكر أئمة أهل البيت Γ في حل الإشكالات التفسيرية للنص القرآني* (المجلد ط١). مركز كربلاء للدراسات والبحوث.

شهاب الدين بن حجر (ت: ٨٥٢هـ) العسقلاني. (د.ت). *فتح الباري في شرح صحيح البخاري* (المجلد ط٢). بيروت / لبنان: دار المعرفة للطباعة والنشر.

صالح عبد السميع الآبي (ت١٣٣٠ هـ) الأزهري. (د.ت). *الثمر الداني في تقريب المعاني*. بيروت / لبنان: المكتبة الثقافية.

عبد الرحمن بن علي بن محمد (ت ٥٩٧ هـ) الجوزي. (١٤٠٧هـ / ١٩٨٧م). *زاد المسير في علم التفسير، تحقيق: محمد بن عبد الرحمن عبد الله* (المجلد ط١). دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع.

عبد الرحمن بن محمد، (ت : ٨٠٨ هـ) ابن خلدون. (د.ت). *تأريخ أبن خلدون* (المجلد ط٤). بيروت / لبنان: مؤسسة احياء التراث العربي.

علاء الدين علي بن حسام الدين المتقي (ت: ٩٧٥هـ) الهندي. (١٤٠٩هـ / ١٩٨٩م). *كنز العمال، ، تحقيق: صفوة السقا*.

علي بن أحمد بن محمد بن علي (ت ٤٦٨هـ) الواحدي. (١٣٨٨هـ/ ١٩٦٨م). *أسباب نزول الآيات*. القاهرة: مؤسسة الحلبي وشركاه للنشر والتوزيع.

علي بن أحمد بن محمد معصوم الحسيني المعروف بابن معصوم (ت ١١٢٠هـ) المدني. (١٤٢٩هـ). *الطراز الأول والكناز لما عليه من لغة العرب المعول، تحقيق: مؤسسة آل البيت لأحياء التراث* (المجلد ط١).

علي بن الحسن المعروف بأبن (ت٥٧١هـ) عساكر. (١٤١٥هـ). *تأريخ مدينة دمشق، تحقيق: علي شيري*. بيروت / لبنان: دار الفكر للطباعة والنشر.

عمر بن محمد بن عمر الخوارزمي (ت: ٥٣٨هـ) الزمخشري. (١٣٨٥هـ / ١٩٦٦م). *الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل*. مصر: شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده وعباس ومحمد.

فرات بن إبراهيم ، (ت٣٥٢هـ) الكوفي. (١٤١٠هـ / ١٩٩٠م). *تفسير فرات الكوفي، تحقيق: محمد الكاظم* (المجلد ط١). طهران: مؤسسة الطبع والنشر التابعة لوزارة الثقافة والإرشاد الإسلامي.

محسن الفيض (ت١٠٩١هـ) الكاشاني. (١٤١٦هـ). *التفسير الصافي، تحقيق: العلامة الشيخ حسين الأعلمي* (المجلد ط٢). طهران: مكتبة الصدر.

محمد باقر (ت: ١٤٢٥هـ) الحكيم. (١٤١٧هـ). *علوم القرآن* (المجلد ط٣). قم: مجمع الفكر الإسلامي.

محمد بن إدريس بن العباس (ت٢٠٤هـ) ألشافعي. (د.ت). *الرسالة، تحقيق: تحقيق وشرح: أحمد محمد شاكر.* بيروت / لبنان: المكتبة العلمية.

محمد بن إسماعيل (ت : ٢٥٦هـ) البخاري. (١٤٠١هـ). *صحيح البخاري.*

محمد بن الحسن الحر (ت: ١١٠٤هـ) العاملي. (١٤١٨ / ١٣٧٦ ش). *الفصول المهمة في أصول الأئمة، تحقيق: محمد بن محمد الحسين القائيني.* مؤسسة معارف إسلامي إمام رضا.

محمد بن عبد الله بن مسلم أبن قتيبة (ت٢٧٦هـ) الدينوري. (د.ت). *تأويل مشكل القرآن، تحقيق: أحمد صقر،.*

محمّد بن عليّ بن شهر (ت ٥٨٨هـ) آشوب. (١٣٧٦ – ١٩٥٦م). *مناقب آل أبي طالب، تحقيق: لجنة من أساتذة النجف الأشرف.* النجف الأشرف: مطبعة الحيدرية.

محمد بن محمد بن عبد الرزاق ، (ت١٢٠٥) الزبيدي. (١٤١٤هـ / ١٩٩٤م). *تاج العروس من جواهر القاموس، تحقيق: علي شيري* (المجلد ط١). بيروت: دار الفكر.

محمد بن مسعود (ت ٣٢٠هـ) العياشي. (د.ت). *تفسير العياشي، تحقيق: السيد هاشم الرسولي المحلاتي.* طهران: المكتبة العلمية الإسلامية.

محمد بن مكرم بن على جمال الدين أبن ، (ت:٧١١ هـ) منظور. (١٤١٣هـ / ١٩٩٣م). *لسان العرب، نسقه وعلق عليه ووضع فهارسه: مكتب تحقيق التراث* (المجلد ط٣). بيروت / لبنان: مؤسسة التأريخ العربي.

معمر بن المثنى (ت ٢١٠هـ) التيمي. (١٣٩٠هـ – ١٩٧٠م). *مجاز القرآن، تحقيق: الدكتور محمد فؤاد سزگين* (المجلد ط٢). مكتبة الخانجي ، دار الفكر.

مقاتل بن سليمان (ت: ١٥٠هـ) مقاتل. (١٤٢٤هـ / ٢٠٠٣م). *تفسير مقاتل بن سليمان، تحقيق: أحمد فريد* (المجلد ط١). بيروت / لبنان: ار الكتب العلمية.

مير سيد علي الحائري (ت ١٣٥٣هـ) الطهراني. (٣٣٧ ش). *تفسير مقتنيات الدرر ، الناشر: الشيخ محمد الآخوندي مدير دار الكتب الإسلامية.*